المقدمة

الحمدلله الباقي والصلاة والسلام على رسول الله الهادي وصحابته وأتباعه ممن أخذوا بخير الزادِ وبعد، ففي يوم الجمعة التاسع من محرم من سنة سبع وأربعين وأربع مئة وألف الموافق: ٠٤/ ٠٧/ ٢٠٢٥م بلغني وفاة الفيلسوف الفاضل والمفكر القدير والمترجم المتمكن الدكتور نجيب الحصادي الذي عرفته من خلال ترجماته للعديد من الكتب المتخصصة في فلسفة العلم، ثم تعرفت عليه أكثر من خلال مؤلفاته هو، وكان كثيرا ما يطربني لفصاحته ولعقلانيته، ولذا كنت أحرص على الاطلاع على أي كتابٍ يحمل اسمه، لاسيما وأنه يمتاز عن غيره من الفلاسفة العرب أو الهاوين للفلسفة، أنه كان يترجم من الإنجليزية، كما أن دراساته كانت في الدول الناطقة بالإنجليزية، ولعل ذلك من الأسباب التي جعلته غير محتقنٍ في مؤلفاته، علاوةً على تخصصه في فلسفة العلم التي تخلق -بالعادة- رزانةً في دارسها، ولا شك أن للرجل من الخصائص الذاتية التي جعلته بهذا الوعي والثقل العلمي، فرحمه الله رحمة واسعة.

وكعادتي في قراءاتي أني أحتفظ باقتباسات من أقرأ له، مما أجد فيه نكتة بليغة أو فائدة دقيقة، أو علمٍ محقق أو رأي موّثق.

فمن ثَمّ وجدت من المفيد أن أنشر ما جمعته من كتاباته -رحمه الله- فلعل كلمةً هنا أو هناك، تقود قارئها إلى السعي لدراسة كتب الدكتور فـ(الدال على الخير كفاعله)، ولذا فإن هذه القبسات لا تغني عن قراءة كتبه والبحث الجاد فيها، ولكنها كلمات تقوي العقل وترفع ذائقة العلم، فهي ليست مجرد كلمات وإنما قواعد فلسفية وضوابط فكرية..

فإليك هذه الكلمات..

جمعها: علي بن قاسم الرماح

Alrammahali1@gmail.com

القبسات

ليس بالعقل وحده يحيا الإنسان.

ليس بالعقل وحده ١٤

مشروعية العلم ليست رهنا بيقينية نشاطاته بل وقف على عقلانية منهجه.

منهج المنهج ٣٠

إن ممارس العلم يسلك بطريقة لا علمية حين يفشل في انتهاج أنجع السبل المتاحة له (أن ممارسته لذلك النشاط) لتحقيق مقاصد العلم لا في انتهاج أنجع السبل المتاحة لنا (الآن). ولهذا السبب، لنا أن نتخيل وصول البشر لطرق بحثية أنجع من التجريب، ولنا أن نقرر (آنذاك) أن التجريب لم يعد سبيلا ملائماً من سبل المعرفة العلمية. هذا ما يبرر وجوب أن تكون قواعد المنهج العلمي صورية خالصة قدر ما يبرر وجوب أن تكون طرائق البحث العلمي متعددة ومتعلقة بالسبل المتاحة لتحقيق المقاصد الخاصة لمختلف مجالات العلم.

منهج المنهج ١٣٠

إن الاعتقاد وصدق المعتقد -على ضرورتهما- لا يكفلان قيام المعرفة ما لم في حوزة مدعيها من الشواهد ما يدلل على صدق معتقده تدليلا يضمن مصداقيته.

منهج المنهج ١٧

تعد الخبرة الشخصية والسلطة من أهم المصادر التي يمكن أن تستقى منها المعرفة. على ذلك فإن كونهما مصادر معرفية لا يعني بأي حال إمكان الاعتداد بهما على علاتهما بل يتعين أن يتم إجراء عمليات الضبط والتحقق الملائمة.

منهج المنهج ١٤٤

إن الباحث -نتيجة لحماسه المفرط اتجاه ما عسى أن يكون عليه واقع ما يدرس من ظواهر- عرضة لأن يغفل -بقصد أو بدونه- جملة من الوقائع غير المتسقة وما يقرره فرضه، قدر ما هو عرضة لأن ينحاز إلى أحكام لا تؤيدها بشكل كاف السبل الخاصة التي يتخذ منها أداة للاختبار.

هكذا يتجاهل بعض البحاث الأدلة المضادة، ولا يتحرون الدقة في رصد ملاحظاتهم ولا يقومون بضبط متغيرات ما يدرسون من ظواهر بطريقة تتلاءم والمقاصد التي يرومون تحقيقها، وهكذا تراهم يقررون جازمين بصحة أو مطلقية) ما يستخلصون من نتائج بنوع من "الدوجماطيقية"، التي تتنافى وروح المنهج العلمي.

منهج المنهج ١٣٢

قد يشتط اللا أدري فيجزم باستحالة المعرفة ولا يقتصر على تعليق الحكم بخصوص إمكانها، لكنه حين يقوم بذلك إنما يخون مذهبه فيصبح أقرب إلى الجزمية، التي يكافح جاهداً ضدها، منه إلى اللا أدرية، إذا كان المؤمن هو الذي يجزم بوجود إله، وإذا كان الملحد هو الذي يوقن من عدم وجوده، فإن المرتاب يعزف عن فعل الجزم أو التيقن فيجوز الأمرين على حد سواء. وعلى نحو مماثل، فإن الذي يجزم بإمكان المعرفة كالمتيقن من استحالتها، فكلاهما دوجماطيقي، والمرتاب الحق هو الذي يعلق الحكم. إن الذي يدري أنه لا يدري، تماماً كالذي يدري أنه يدري، ليس مرتاباً بل يجازف بجعل مذهبه عرضة للارتياب.

الريبية في قدسية العلم ٣٥

إن كون بعض المناشط البشرية كالفلسفة والدين تعتد في استنباط أحكامها بمناهج لا تمت للملاحظة والتجريب بصلة لا يعني -في حد ذاته- ضرورة عدم اعتبارها مصادر معرفية. قد يعرف المرء -بعقله أو وجدانه أو بوحي يوحى له- قضايا غيبية وقد يعتقد في صحة مبادىء أخلاقية دون أن يعتد بالحس، غير أن كون هذه المعارف معارف لا علمية لا ينقص من أهميتها قدراً خاصة وأن العلم -بطبيعة أهدافه ومناهجه- غير قادر على حسم مثل هذه الأمور. العلم لا يعبر عن أوج مراحل المعرفة البشرية رغم أنه يظل -في مجال تخصصه- أنجع سبلها وأوثق مصادرها.

منهج المنهج ٤٨

إن الفأل والتطير بأشكالهما كافة تستند على خبرات سابقة لم تخضع لأي نوع من أنواع الضبط والتحقيق ولا تعدو أن تكون تقريرا تعوزه الشواهد لقيام علائق سببية بين ظواهر لا تمت لبعضها بعضا بأدنى وشائج عليّة.

منهج المنهج ٤٥

لو لم يكن ثمة من لا يرتاب في العلم، لو أجمع الناس على تقديس أحكامه، لتم رفضه دون جدل، باختصار، فإن تقويم العلم -الذي قد يفضي إلى دعم نهجه- لا يحدث إلا في حضرة مرتاب ومقدس، وغياب أحدهما عادة ما يسلب الآخر أهميته.

الريبية في قدسية العلم ٤٥

إن كون القضية قضية علمية لا يعني بأي حال أنها قضية صادقة بالضرورة. بل يعني أنه بالإمكان التحقق من مصداقيتها (أو بطلانها) عبر الأساليب المنهجية الملائمة.

منهج المنهج ١٠١

الحس والعقل والحدس والاستقراء والاستدلال ليست مصادر للمعرفة بل سبل من سبلها، ولذا فإن الحديث عنها لا يجيب عن السؤال "من أين نعرف؟"، بل يتعلق بالسؤال "كيف نعرف؟".

منهج المنهج ١٤٤

إن خطيئة الإصرار على عقلنة كل الممارسات البشرية لا تكمن فحسب في كونها تكبح جماح سائر ملكات النفس -بما يفضي إليه هذا الكبح من قصر لكل إمكانات الإبداع- بل تكمن أيضاً في كونها عاجزة عن تبرير مشروعيتها. "إن من يعتقد في ضرورة كون معتقداته و(سلوكياته) مطالب -بالمنهج نفسه الذي ينتهجه- أن يبرر اعتقاده ذاك، وهذا من شأنه أن يوقعه في معضلات لا سبيل للخلاص منها. فمبرره -مهما كانت حيثياته- إما أن يكون عقلانياً أو لا عقلانياً. فإن كان عقلانياً تضمن مصادرة على المطلوب (فالشيء لا يكون عقلا علة ذاته)، وإن كان غير ذلك (أي إذا لجأ التبرير إلى ملكة غير ملكة العقل) أثبت عكس ما يود إثباته وسحب البساط من تحت قدميه.

ليس بالعقل وحده ٣٠

إن بشرية البشر لا تحقق مكتملة بالإصرار على "عقلنة" الممارسات الإنسانية (بالطريقة التي يلهج بها أنصار النزعة الوضعية) كما لا تحقق مكتملة بالتعويل فحسب على إعمال ملكة الحدس بالطريقة التي يعتد

بها غلاة النزعة الوجدانية بل تحقق بتمكين النفس البشرية من الإفصاح عن ملكاتها المكنونة بسبيل يحول دون انتزاع السطوة لأي من هذه الملكات على سائرها.

ليس بالعقل وحده ٧

إن الأمة التي تكتض حيوات أبنائها بالمقدسات تثقل كواهلهم بأعباء قد تحول دون إحداث أي تطور حاسم على المستوى الحضاري. ذلك أن قدسية المقدس إنما ترتبط عادة بعدم قابلية أحكامه للنقد والحجاج، الأمر الذي يفتح الباب على مصراعيه للوقوع في حبائل الدوجماطيقية وأشراك واحدية المنظور. ولأن الدوجماطيقية تتنافى بطبيعتها الحرية (شرط الإبداع، ولأن الإبداع أداة التطور الخلاق (شرط التحضر)، فإن فعل التقديس عادة ما يعرقل مسيرة هذا التطور إن لم يقف حائلا دونه.

الريبية في قدسية العلم ٣٨

إن من يأخذ الأمور على علاتها، ويركن إلى الثوابت الجاهزة بأطرها الصارمة وقوالبها الجامدة، ويطمئن لما تطمئن إليه أنفس أقرانه، لا يبدع وليس له أن يبدع، ولو كانت علامات مسار تطور الفكر البشري وقف على مناشطه، لنكص ذاك المسار على عقبيه وارتد إلى تواتراته يجترها برتابة مفرطة، ولأصبحنا نردد مع من يردد: "ما ترك السابق للاحق شيئاً"، "لم يدع من مضى للذي قد غبر.. فضل علم سوى أخذه بالأثر"، لو كان الأمر على تلك الشاكلة، لغدا العالم صغيراً ومملا، ولما كانت الحياة جديرة بالعيش.

ليس بالعقل وحده ٢٨